

التراث - مفهوم واستراتيجيات معرفية وإيديولوجية -

## Heritage - concept cognitive and ideological strategies -

أ.د. سعيدي محمد

كلية العلوم الإنسانية و العلوم الاجتماعية - جامعة تلمسان (الجزائر)

[msaidi45@yahoo.fr](mailto:msaidi45@yahoo.fr)

تاريخ الإرسال: 16-10-2021 تاريخ القبول: 09-01-2022 تاريخ النشر: 15-02-2022

### ملخص:

نسعى في هذه المداخلة إلى الإجابة على عدد من التساؤلات التي ظلت تضغط علينا في موضوع التراث عامة، والتراث العربي الإسلامي، من حيث التعريف اللغوي والاصطلاحي، ومن حيث مقاصد البحث فيه، ودراسته ووسائل وتقنيات التكفل به وحمايته وصيانته، وكذا الأبعاد والأطر المعرفية، والثقافية، والتاريخية، والحضارية، والسياسية، التي شهدت عن ولادته تفاعلاته.

**الكلمات المفتاحية:** التراث ؛ الأصالة ؛ المعاصرة ؛ الحداثة ؛ الهوية ؛ النقد المعرفي.

### Abstract :

In this intervention, we aim to answer such a number of questions impressing our thought in the core subject of heritage in general and the Arab-Islamic heritage in particular in terms of linguistic and idiomatic definitions as well as research purposes study in addition to means and adopted techniques used to protect and to maintain it, furthermore, its cognitive, cultural, historical, civilizational and political dimensions that witnessed on its birth and interactions.

**Keywords :** heritage ; originality ; contemporary ; modernity ; identity ; cognitive criticism

المؤلف المرسل: سعيدي محمد، الإيميل: [msaidi45@yahoo.fr](mailto:msaidi45@yahoo.fr)

## 1- التقديم :

شكل مفهوم التراث موضوعا خصبا لعدد من الدراسات وفق أسس ومبادئ معرفية ومنهجية مختلفة منذ القديم ... اهتم به الفلاسفة، والنقاد، والفقهاء، والمؤرخون، والأنثروبولوجيون، وعلماء الحضارة، واللغويون، وعلماء النفس، وعلماء الاجتماع، وعلماء الاقتصاد، والسياسة، والفن، و الثقافة، والهندسة وال عمران وغيرهم... حيث افردوا لك كتباً ومصنفات عديدة لا زالت تزخر بها المكتبات في كل أنحاء العالم. فكل شعوب العالم قد اهتمت بتراثها من حيث البحث، والتنقيب، والتحقيق، والدراسة، والطبع، والصيانة، والاستثمار، والاستغلال المادي واللامادي. شكل التراث عبر مراحل التاريخ المختلفة مادة خصبة، ومنبعاً أصيلاً، تم استثماره واستثمار ما يزخر به من قيم فكرية وعلمية، حيث عمل الباحثون والمهتمون في مجالات مختلفة على استثمارها والاستفادة منها في ميادين معرفية، واجتماعية، وعقائدية، وسياسية، واقتصادية، وأدبية، ولغوية، وفنية مختلفة. وأمام هذا الاهتمام الكبير والمتواصل الذي أولاه الباحثون المهتمون بالتراث والعناية به، نجد أنفسنا أمام عدد من التساؤلات والتي ظلت تضغط علينا باستمرار ولعلها:

- ما معنى التراث؟ ما هي مكوناته المادية واللامادية؟ ما هي حدوده الزمنية والتاريخية؟
- ما هي المقاييس والمبادئ المميزة للتراث من حيث الطرح الشكلي والوظيفي والرمزي؟
- كيف ندرس التراث وما هي القواعد العلمية السليمة التي يمكن اعتماده للتكفل بالتراث؟
- ما هي أسباب ودوافع اختلاف المدارس والاتجاهات المهمة بالتراث؟
- ما معنى الاتجاه المحافظ في مادة التراث؟ وما هي خلفياته المعرفية والإيديولوجية؟
- ما معنى الاتجاه التجديدي والمعاصر في مادة التراث؟ ما هي خلفياته المعرفية والإيديولوجية؟
- ما معنى الاتجاه التوفيقي في مادة التراث؟ ما هي خلفياته المعرفية والإيديولوجية؟
- لماذا نهتم بالتراث؟ متى نهتم بالتراث؟

## التراث - مفهوم واستراتيجيات معرفية وإيديولوجية

إن الأسئلة لا تنتهي في مقارنة موضوع التراث. وهذا ما سوف نحاول التكفل بالبحث في هذه المداخلة التي نريدها مساءلة عامة وشاملة مع التركيز التطبيقي على مسيرة التراث العربي الإسلامي في ميزان الفكر العربي المعاصر.

### 2. تعريف التراث:

#### 1.2. تعريف التراث لغة:

يتقاطع مفهوم التراث من حيث البناء اللغوي والمعجمي مع كلمة الإرث والتي مصدرها من فعل ورث يرث إرثاً وميراثاً.

نشير إلى أن كلمة "التراث" قد وردت في القرآن الكريم مرة واحدة في قوله سبحانه وتعالى: «وتأكلون التراث أكلاً لما» (من سورة الفجر، الآية رقم 19)

أجمعت كتب التفاسير على أن معنى كلمة "التراث" في القرآن الكريم هي أصلاً مرتبطة بالفعل الأخلاقي والعقائدي الشرعي في مادة جمع الأموال بطرق ملتوية وغير مقبولة، ما قد تؤدي بصاحبها إلى ارتكاب الحرام في جمعه المال والاستحواذ والاستيلاء عليه دون تفرقة بين ما هو له، خاص به و يمكن جمعه واختزانه وامتلاكه والتمتع به والتصرف فيه، وبين ما هو لغيره ولا يمكن التقرب منه أو مسه والاعتداء عليه. إن العبد وهو في حالة جمع المال مطالب بتبني الطرق السليمة الموصى بها شرعاً دون التبني الطرق الممنوعة والمحرمة، معتمداً في ذلك أسلوب السرقة والغش والخداع والتحايل. غير أن المعنى القرآني لكلمة التراث قد عرف إنزياحات دلالية ووظيفية، ليسافر عبر محطات دلالية ووظيفية أخرى، اكتسبها المفهوم عبر عدد من الممارسات الفكرية واللغوية والدلالية جديدة تتماشى والسياق المعرفي والثقافي، والنفسي، والاجتماعي، والسياسي، والإيديولوجي، الذي اوجد للمفهوم معاني جديدة.

#### 2.2. تعريف الاصطلاح لمفهوم التراث:

لا يمكن أبداً التفكير والاعتقاد أن تعريف مفهوم التراث وإيجاد له تعريفاً خاصاً عملية سهلة وبسيطة. إن هذا المفهوم على بساطته اللغوية ظل يطرح إشكالات معرفية ولغوية ودلالية ووظيفية ورمزية جد معقدة. وقد تتجلى هذه الوضعية وهذه الحالة من الكم الهائل من التعريفات والمقاربات التي سافرت

## سعيد محمد

به عبر عدد من التمرجات الفكرية، والفلسفية، والإيديولوجية، والتاريخية. لقد عرف المفهوم تعريفات عديدة ومختلفة ما بين الباحثين المهتمين به، وأحيانا حتى عند المفكر الواحد، قد يبدع ويقترح تعاريف مختلفة. وقد لا يتسع المقام لمتبعتها ومناقشتها. فهي عديدة ومتنوعة ومختلفة، سوف نقف عند البعض منها والصادرة عن مفكرين كان لهم الباع الكبير في الاهتمام به ودراسته والبحث فيما يطرحه مفهوم التراث من إشكالات معرفية، وفلسفية، وإيديولوجية. وفي هذا الصدد، سوف نركز على عدد من الباحثين أمثال المفكر الجزائري محمد أركون، والفيلسوف المغربي محمد عابد الجابري، والمفكر حسن حنفي، والمفكر السوري الكبير طيب تيزيني وغيرهم.. يعرف الباحث والمفكر حسن حنفي التراث في قوله: «التراث هو كل ما وصل إلينا من الماضي داخل الحضارة السائدة فهو إذن قضية موروث، وفي نفس الوقت، معطى حاضر على عدد من المستويات.» (حسن حنفي، 1992، ص.13) لقد اعتمد الباحث حسن حنفي في تعريفه للتراث على عدد من العناصر البنيوية والوظيفية والرمزية وهي :

- التراث حي مستمر الحضور في الزمن الحاضر.
- التراث له انتماء حضاري، أي، ينتمي إلى حضارة سائدة وحية ومستمرة فعاليتها وحركيتها المادية والمعنوية في الزمن الحضاري الحاضر.
- التراث حامل لقوة التفاعل الزمني الحاضر بالماضي ومع الماضي في الماضي، وذلك عبر عدد من المستويات المادية والمعنوية المختلفة، ووفق أطر موضوعاتية متعددة اجتماعيا، وعقائديا، وحضاريا، وتاريخيا، ونفسيا، واقتصاديا، وتقنيا، ...
- إن الحديث عن الزمن التاريخي في مادة التراث، هو حديث أصيل وذي علاقة عضوية مع التراث ذاته، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، إن هذه العلاقة وإن كتبت لها أن تحمل حمولة الزمن الماضي، فهذا يحتاج إلى قراءة جديدة لمفهوم التراث والزمن الماضي، لأنه «ليس التراث هو الماضي بكل ما حفل به من تطورات في المجالات جميعا وما شهدته من أحداث تعاقبت عبر العصور، ولكنه الحاضر بكل تحولاته، والمستقبل بكل احتمالاته. فالتراث يمتد في ويتقل معنا إلى المستقبل. فهو جزء منا لا نستطيع الفكك منه والتراث بذلك سمة أصيلة من سمات الهوية به تكتمل عناصرها وبصبغته تصطبغ.» (السيد يسين، 1958، ص. 7)

## التراث - مفهوم واستراتيجيات معرفية وإيديولوجية

وقد لا يمكن تعريف التراث فقط اعتمادا على عنصر التاريخ والزمن الماضي، فهو إضافة إلى العنصر الزمني، والذي يبقى جزء فقط وليس كلا وكاملا. فالتراث ليس محمدا فقط بتاريخ معين فكل ما خلفه الحكماء، والمفكرون، والعلماء، والفقهاء، والفلاسفة، والنقاد، والشعراء، والمؤرخون، والمهندسون، والمعماريون، ورجال السياسة والسلطة والحكم، في شتى حقول المعرفة الإنسانية، يعد تراثا فكريا، وثقافيا، وعلميا، واجتماعيا، واقتصاديا، وعمرانيا، وهندسيا، وطبيا وصيدلانيا الخ...» «ولذلك فليس هذا التراث الذي هو ذخيرة حية في عقولنا، وقلوبنا، ووجداننا، وفي الذاكرة الجماعية لامتنا، هو الماضي فحسب وإنما هو الماضي والحاضر والمستقبل». (السيد يسين، 1985، ص.8)

إن التراث كذات معرفية وثقافية غني من حيث مكوناته المادية واللامادية وكل الشعوب تفتخر بتراثها والذي هو جزء أصيل وثابت من تاريخها، وذكرياتها، وهويتها، وثقافتها، وشخصيتها، وقد يشمل التراث الماضي الثقافي، والفكري، والحضاري بكل مقوماته ومكوناته من طقوس وممارسات ورموز، كما قد يشمل اللغة، والثقافة، والبناء الاجتماعي، والنظام السياسي، والممارسات الاقتصادية، والإبداعات الفنية، والفكرية، والأدبية، والإنتاج العلمي، والمسارات التاريخية، والبناء الحضاري، والهندسي، والمعماري، أي كل ما أنتجه الشعب واستمر في إنتاجه أو في استهلاكه ماديا ومعنويا، وظل متمسكا به ومحافظا عليه، سواء من حيث الاستعمال والممارسة التطبيقية، أو من حيث المحافظة والصيانة الرمزية. وفي هذا الصدد، يعرف المفكر محمد أركون التراث انطلاقا من محتويات ووظائف تختلف باختلاف الأطر الاجتماعية، والاتجاهات الثقافية، والمراحل التاريخية الخاصة بكل مجتمع:

- التراث «كسنة الآباء» أي كأخلاق وتقاليد تؤمن بها الجماعة.
- التراث كإطار من أحكام وشرائع استنبطها الأئمة المجتهدون، ويخضع لها الجميع المكلفين «أهل السنة والجماعة» و«أهل العصمة والعدالة» .
- التراث كمعلومات عملية تجريبية شعبية يتوارثها الأفراد في ممارسة الحرف والأعمال اليدوية.
- التراث كمجموعة أدبية فكرية علمية مكتوبة خاصة بالطبقات المدنية العاملة، تختلف عن التراث الشعبي الشفوي.

- التراث كتصورات للماضي مبررة لما تحلم به الجماهير لحاضرها ومستقبلها. (محمد أركون، 1985، ص.157)

## سعيد محمد

وقد تترجم الشعوب علاقتها بالتراث سواء من حيث الاستعمال أو الاستهلاك أو من حيث الوعي بضرورة الحماية، والعناية، والصيانة، والترميم، والمحافظة، معتبرة ذلك واجبا وطنيا وقوميا مقدسا. وفي هذا الصدد، فإن التراث هو مادة أساسية لعملية الحفاظ، وبالتالي فإنه «إذا كان الحفاظ على الشيء له معنى رئيس ينصرف إلى خمسة معان فرعية هي: المواظبة، والصيانة، والوقاية، والمراقبة، والمراعاة، ولا تكون لهذه المعاني جميعا مدلول واقعي إلا إذا اجتمعت وتداخلت وتكاملت. فإنه لا معنى للحفاظ على الشيء إذا لم يواظب عليه ويصان، ويوقى، ويراقب، ويراعى. ويبطل هذا المعنى الجامع الشامل إذا انتفى عنصر واحد من هذه العناصر الخمسة، التي تدخل في الحفاظ على شيء من الأشياء» (د. عبد العزيز بن عثمان التويجيري، 2004، ص. 148)

ومن هذا المنطلق فإنه لا يوجد شعب بدون تراث ولا يوجد شعب يعيش منعزلا عن تراثه كما أنه لا يوجد شعب لم يصنع ذات يوم من تاريخه تراثا ما. فكل شعوب العالم مهما كان مستواها الفكري والحضاري، ومهما كان مستواها الاقتصادي، ومهما كان انتماءها العقائدي والإيديولوجي، ومهما كان موقعها الجغرافي، فلقد أنتج أسلافها ذات يوم أفكارا، وثقافة، وأنظمة حياتية، وممارسات اجتماعية، وثقافية، وفنية، وعقائدية، وسياسية، وحضارية، وهندسية، وعمرانية ومعمارية، كانت مصدر حياتها، ولا زالت حية في قلوب أبنائها، يحملونها في شعورهم وفي لا شعورهم من زمن الماضي، زمن الأسلاف والأجداد. ومن هذا المنطلق فإن التراث «هو ما خلفه الكبار لكي يكون عبرة من الماضي ونهجا يستقي منه الأبناء الدروس ليعبروا بها من الحاضر إلى المستقبل. والتراث في الحضارات بمثابة الجذور في الشجرة فكما غاصت وتفرعت الجذور كانت الشجرة أقوى وأثبت وأقدر على مواجهة تقلبات الزمان. كذلك، فكل الناتج الثقافي لأمة يمكن أن تقول عنه «تراث الأمة». (<https://ar.wikipedia.org/wiki> <تراث>، لقد طرح الباحثون في مادة التراث عددا من الإشكاليات المعرفية، والفلسفية، والحضارية، مثل مسألة الأصالة والمعاصرة، ومسألة التجديد والتقليد المحافظة والحدثة.

وقد تولد عن هذه المحطات تساؤلات حمة من حيث العناية بالتراث والاهتمام به، أو عدم الاكتراث به في الزمن المعرفي والإيديولوجي الحاضر، وفي ظل التهافت الفكري، والإيديولوجي، والحضاري، وفي ظل الصراعات الفكرية، والإيديولوجية، والحضارية، والسياسية، وفي ظل تطاحن الهويات، وفي ظل الأزمات النفسية الفردية والجماعية للبناءات الاجتماعية، والثقافية، والعقائدية، والسياسية، والفنية، والحضارية، والتاريخية وفي ظل الثقل المعرفي، والفكري، والإيديولوجي، الاقتصادي، الذي فرضته العولمة.

## التراث - مفهوم واستراتيجيات معرفية وإيدولوجية

ولعل أهم تساؤلات التي ظلت تضغط علينا في مادة إحياء أو عدم إحياء التراث مفادها: لماذا نحي التراث

ونفكر فيه في الزمن الحاضر؟ ما هي شروط واليات الإحياء؟ وفي أي صورة، وفي أي شكل نحي التراث؟

«إن التراث هو نقطة البداية كمسؤولية ثقافية وقومية والتجديد هو إعادة تفسير التراث طبقا لحاجات

العصر فالقديم يسبق الجديد، والأصالة أساس المعاصرة، والوسيلة تؤدي إلى الغاية التراث هو الوسيلة

والتجديد هو الغاية، وهي المساهمة في تطوير الواقع وحل مشكلاته والقضاء على أسباب معوقاته وفتح

مغاليقه التي تمنع أي محاولة لتطويره والتراث ليس قيمة في ذاته إلا بقدر ما يعطي من نظرية علمية في

تفسير الواقع والعمل على تطويره.» (حسن حنفي، 1992، ص.13)

يطرح الباحث حسن حنفي في هذا الموقف قضية إحياء التراث وتجديده، مسألة علاقة التراث ومضمونه،

من حيث مكوناته المادية والزمنية، ومن حيث التفاعل الزمني الماضي والحاضر، أي هل أن التراث رمز

الماضي يتماشى ومتطلبات الزمن الحاضر دون تفكير إقصائي تصارعي أو تصادمي فالتراث حامل لمعاني

الماضي وقيمه وأفكاره إيدولوجيته وأطروحاته، قد تساهم في بناء مجتمع، وثقافة، وفكر الزمن الحاضر،

اجتماعيا، وثقافيا، واقتصاديا، وعقائديا، وسياسيا، وحضاريا، أي أن ما يزخر به التراث من معاني،

وأفكار، وتجارب، قد لا يكون لها صدى وفعالية بنائية وبنوية في الزمن الحاضر، أي خدمة التراث الماضي

لمشاكل الزمن الحاضر، داخل الحضارة الواحدة أو الحضارات المختلفة المتفاعلة فيما بينها من حيث التأثير

والتأثر.

فكم من مرة أثبت التراث قيمته المعرفية والعلمية المفيدة للزمن الحاضر وقد يتجلى ذلك في تلك العطاءات

العلمية والفكرية في مجالات مختلفة التي أبدع فيها السلف الصالح، والتي ظلت حية مهمة ومفيدة في الزمن

الحاضر، أو على الأقل مادة خصبة تبنى عليها أفكار الزمن الحاضر، في العلوم، والفكر، والفلسفة،

والطب، والهندسة، والنقد، واللغة، وعلم الفلك، والفيزياء، والكيمياء، والرياضيات، والجغرافيا والتاريخ،

والاقتصاد، والسياسة، وغيرها من المعارف التي أبدع فيها العلماء، والمفكرون، والفقهاء، والفلاسفة، في

الزمن الماضي.

لقد ساد الاعتقاد أن التراث هو ذلك الإرث الماضي الذي أنتجه القدماء وانتهى بنهايتهم ونهاية مرحلتهم

التاريخية، ولم يعد صالحا أو مفيدا في الزمن الحاضر. كما ساد الاعتقاد أن هذا التراث لا يمكن بأي حال

من الأحوال المساس به، فهو مقدس وغير خاضع للمناقشة أو التحليل أو المساءلة فهو جزء من الهوية،

## سعيد محمد

ومن التاريخ، ومن الانتماء الحضاري، والثقافي، والفكري العقائدي، فهو ثابت، وأن أي محالة لمقارنته هي مرادف لعملية تحطيمه وتدميره، وبالتالي، فإن كتب التعامل معه فلا بد وان تكون وفق رؤية ومنهجية مستمدة من زمن إبداعه، أي قراءته وفق مبادئ واليات من الماضي دون التفكير في إحيائه أو في تجديده أو تطبيق آليات منهجية ومعرفية عليه من الزمن الحاضر.

كما ساد الاعتقاد أن هذا التراث هو كله خرافة يفتقد إلى التفكير العلمي، وبالتالي لم يعد صالحا للمرحلة الزمنية الحاضرة، فهو رمز للتخلف، والتحنيط، والرجعية الفكرية والحضارية.

لقد تعامل الفكر المعاصر مع التراث تعاملًا مجحفًا، ومقصرًا، ومنحرفًا، وسيئًا له في العديد من المواقف والقضايا المعرفية والإيديولوجية، حيث لم يتوانى في سجنه ضمن مساحات ضيقة، مشوهة ومسيئة، متنكرة له، ولبعده المعرفي، والعلمي، ومسؤوليته، في التكفل بقضايا الإنسان والمجتمع.

إن المسيرة المعرفية، والفكرية، والثقافية، والإيديولوجية، للتراث تترجم محطات تأويلية غير موضوعية، وغير علمية، وغير مسؤولة، كادت أن تعصف به، وتشوه هويته، ومسيرته، وانتماءاته الحضارية كما عرف التراث حالات من المراهنات، والاستغلال، والاستثمار الديماغوجي، الصادر عن نرجسيات وأنانيات تسلطية، حيث كم من مرة تم استغلاله واستثماره من أجل تمرير خطابات وعقائد وأيديولوجيات ليست منه ولا من كيانه ولا من أخلاقه. فهي استعمالات، وإستغلالات، وتأويلات غير صحيحة، وغير سليمة، تخفي بين طياته خطابات سياسية، أو عقائدية مزورة ومشوهة، حيث لا يتم استغلال واستعمال واستثمار قيمه وأفكاره وفق الأسس العلمية والأخلاقية النزهة والشريفة. فهي مواقف وأطروحات في تعاملها مع التراث «تصرف بطرق غير سوية على دفعات عشوائية في سلوك قائم على التعصب أو الجهل أو الحمية الدينية، والإيمان الأعمى أو يستعملها أنصار تثبيت الأوضاع القائمة لحسابهم الخاص من أجل الدفاع عن الثبات الاجتماعي». (حسن حنفي، 1992، ص.19)

لقد كان لهذا الاستغلال لا علمي، ولا أخلاقي للتراث، آثار سيئة وسلبية كادت أن تشوهه وتشوه مسيرته العلمية، وتفقد رونه العلمي، والحضاري، والتاريخي، ومكانته المعرفية، حيث استغلت هذه الطائفة من الانتهازيين، والنرجسيين مناصبهم، ومعارفهم، وأطروحاتهم، من أجل تقديم صورة مشوهة، قاتمة، مدنسة، لهذا التراث، حيث ما فتئوا يبرزون الوجه المسيء المتدهور والمتخلف منه، وبالتالي، فإن حديثهم عن التراث وعن إحيائه ودراسته لم تتعدى «حل لطلاسم القديم وللعقد الموروثة وقضاء على معوقات التطور والتنمية والتمهيد لكل تغير جذري للواقع فهو عمل لا بد لتوري من أنه يقوم به وإلا ظل القديم شيخا ماثلا أمام

## التراث - مفهوم واستراتيجيات معرفية وإيديولوجية

الأعين، يمثل أرواح الأسلاف التي تبعث من جديد تتربص بالأبناء شرا إذا هم خرجوا من جبتهم ورفضوا سلطانهم ولم يدينوا لهم بالطاعة والولاء، أو يقوم أنصار المحافظة والإبقاء على الأوضاع القائمة باستغلال هذا المخزون لصالحهم وأخذ الجماهير من جانبهم، وقطع خط الرجعة على أنصار التغيير والتقدم.» (حسن حنفي، 1992، ص.19)

إن التراث ليس كله جميل، ومفيد، ومثالي، وليس كله قبيح، وسيء، ومرفوض فشأنه شأن أي عمل فكري أنتجه الإنسان والعقل الإنساني عبر مراحل التاريخ، ووفق آليات معرفية، وثقافية، ووفق متطلبات المجتمع، والاقتصاد، والفقه، والأدب، واللغة، والسياسة، والعمران. ومن هذا المنطلق، فإن التعامل مع التراث من حيث الأحياء، والتجديد، والصيانة، والدراسة، والاستفادة، والترجمة، معرفيا، وعمليا، واجتماعيا، واقتصاديا، وثقافيا، وسياسيا، وعقائديا، وعمرانيا، وهندسيا، لا بد وأن تخضع هذه العملية إلى رؤية علمية شريفة، ونزيهة، وأخلاقية وواعية ومسؤولة. فالتراث مهما كن مصدره، ومهما كانت أشكاله، ومهما كان مستواه، ومهما كانت مقاصده، فهو «مازال قيمه حية في وجدان العصر يمكن أن يؤثر فيه ويكون باعثا على السلوك. تجديد التراث إذن ضرورة واقعية ورؤية صائبة للواقع فالتراث جزء من مكونات الواقع وليس دفاعا عن موروث قديم. التراث حي يفعل في الناس ويوجه سلوكهم، وبالتالي يكون تجديد التراث هو وصف لسلوك الجماهير، وتغييره لصالح قضية التغيير الاجتماعي. تجديد التراث هو إطلاق لطاقت مختزنة عند الجماهير بدلا من وجود التراث كمصدر لطاقة مختزنة.» (حسن حنفي، 1992، ص.19)

لقد صدرت هذه الأطروحات عن مواقف كاد أن يكون أغلبها مستمدة من مواقف سياسية إيديولوجية بعيدة عن التفكير العلمي السليم، فهي مواقف غير مؤسسة، وفاقدة للروح، وللفلسفة العلمية، التي تقوم أساسا على أن الفكر العلمي هو فكر تراكمي ممتد في الزمن الماضي، ومستمر في الزمن الحاضر، ومتواصل في الزمن المستقبلي. إن التراث هو أصلا إنتاج عقل، وفكر، وثقافة، في زمن تاريخي معين، وفق متطلبات المرحلة الزمنية، ومتطلبات الإنسان، والمجتمع، في مرحلة من تاريخ هذا المجتمع، ومن تاريخ هذا الإنسان، الذي هو مستمر في الحياة عبر أبنائه وحفدته في كل بقعة من الأرض وقد عالج هذا التراث وتكفل بعدد من القضايا الإنسانية المطروحة في تلك المرحلة من زمن الإنسان، ولا زال الكثير من هذه القضايا مطروحا على إنسان المرحلة الزمنية الحاضرة. وبالتالي قد يجد إنسان الزمن الحاضر الآليات والمنهجية المفيدة للتكفل بها ولمقارنته لها كما قام بذلك الأسلاف الصالح من علماء، وفقهاء، ومفكرين في مجالات مختلفة. إن

## سعيد محمد

«التراث القديم ليس قضية دراسة للماضي العتيق فحسب الذي ولى وطواه النسيان ولا يزار إلا في المتاحف ولا ينقب عنه إلا علماء الآثار، بل هو أيضا جزء من الواقع ومكوناته النفسية. ما زال التراث القديم بأفكاره وتصوراته ومثله موجها لسلوك الجماهير في حياتها اليومية، إما بعاطفة التقديس في عصر، لا يسلك الإنسان فيه إلا مداحا أو بالارتكان إلى ماض زاهر تجدد فيه الجماهير عزاء عن عوائقها المضي.» (حسن حنفي، 1992، ص. 15-16)

وقد أشارنا سابقا أن التجديد ليس نغيا للتراث وأن التجديد ليس صراعا أو صداما مع التراث، كما أن التجديد ليس غريبا عن التراث، حيث أن أصل التراث كان في وقت من الأوقات جديدا وتجديدا، جاء ليكمل، أو يطور، أو يواصل مسيرة تراث كان قد سبقه وفق سنة التكامل، والتواصل، والاستمرارية المعرفية. إن ما نسميها اليوم تراثا كان في وقت سابق إبداعا، وفكرا، وثقافة جديدة. «فان التراث والتجديد يعبران عن موقف طبيعي للغاية، فالماضي والحاضر كلاهما معاشان في الشعور ووصف الشعور هو في نفس الوقت وصف للمخزون النفسي لمتراكم من الموروث في تفاعله مع الواقع الحاضر إسقاطا من الماضي أو رؤية الحاضر. فتحليل التراث هو في نفس الوقت تحليل لعقليتنا المعاصرة وبيان أسباب معوقاتها وتحليل عقليتنا المعاصرة هو في نفس الوقت تحليل للتراث لما كان التراث القديم مكونا رئيسيا في عقليتنا المعاصرة. ومن ثم يسهل علينا رؤية الحاضر في الماضي، ورؤية الماضي في الحاضر. فالتراث والتجديد يؤسسان معا علما جديدا وهو وصف للحاضر وكأنه ماض يتحرك وصف الماضي على أنه حاضر معاش.» (حسن حنفي، 1992، ص. 19)

ومن هذا المنطلق، فإن بين التراث والزمن الماضي، والزمن الحاضر، والزمن المستقبلي، تفاعل عضوي تكاملي متين، وذلك عبر بوابة عدد من الجدليات وان كانت تبدو في كثير من الأحيان ومن المواقف وفي عدد من الأطروحات الفكرية والفلسفية والإيديولوجية متصارعة ومتناقضة فيما بينها فإنها في هذا السياق، تبقى مكتملة لبعضها البعض، حيث قد لا تكون الواحدة دون حضور الأخرى، وهي جدلية قد تضمن للتراث الحياة والاستمرارية والتفاعل جدليات رسمت تضاريس المسيرات الفكرية، والمعرفية، والإيديولوجية لكل تراث يسعى أصحابه إلى خلق تفاعلات ممكنة بين محطاته مثل الأصالة والمعاصرة والتجديد والتقليد والحداثة والتراث، والماضي والحاضر الخ... وبالتالي «ولما كان التراث يشير إلى الماضي، والتجديد يشير إلى الحاضر، فان قضية التراث والتجديد هي قضية التجانس في الزمان، وربط الماضي بالحاضر، وإيجاد وحدة التاريخ. فكثيرا ما سمعنا في عصرنا هذا عن انفصال الماضي عن الحاضر، أو عن قطع جذور الحاضر من

## التراث - مفهوم واستراتيجيات معرفية وإيديولوجية

الماضي، أو عن ماضي عظيم ولى ولن يعود، أو عن حاضر أصيل جديد عبقرى المثال لا أصول به إلا من ذاته. ربط الماضي بالحاضر، إذن ضرورة ملحة حتى لا يشعر الإنسان بغربة عن الماضي، أو بغربة عن الحاضر، أو بوضع طبقة من الجديد فوق طبقة من القديم، مما ينشأ عنه في كثير من الأحيان لحفظ القديم الجديد ورجوع للقديم كرفض العضو للجسم الغريب.» ( حسن حنفي ، 1992، ص.20 )  
وفي نهاية المطاف ، يبقى التراث « إبداع فكري متميز يشمل بين طياته الفلسفة ،وعلم الكلام، والتصوف، والأدب، والإلهيات ،والعلم، والفن ،وغيرها، وهو يعكس البعد التاريخي ،أو الزمني للثقافة باعتباره تسجيلا للحياة الثقافية، والفكرية ،والاجتماعية، والسياسية خلال التاريخ. فهو بذلك حافظة الماضي ووعيه وذاكرته كما سجلته عقول ذلك الماضي من فلاسفة ،ومفكرين ،وأدباء، وعلماء ،وفنانين، وغيرهم. ومع ذلك ،فان هذا التراث العميق لا يزال يعيش فينا بشكل أو بآخر. وان لم تدرك ذلك تمام الإدراك.» (أحمد أبو زيد، 2004 ،ص.ص.5-6)

### 3. التراث العربي الإسلامي: الدراسة والإحياء والتجديد:

إن الاهتمام بالتراث من حيث البحث والتعريف به، والتعرف عليه، وإخراجه، وإحياءه، وصيانته، ضرورة ملحة في خضم التهافت الفكري، والإيديولوجي، الحضاري، والسياسي فهي عملية واعية ومسؤولة ومنخرطة في الفعل الوطني والقومي، وذلك لكون التراث محطة أساسية من محطات الهوية، والذاكرة، والتاريخ، والحضارة. « فالتراث هو قضية وطنية لأنها جزء من واقعنا، نحن مسؤولون عنه، كما أننا مسؤولون عن الشعب والأرض والثروة، وكما أننا مسؤولون عن الآثار القديمة والمآثورات الشعبية...تجديد التراث إذن، ليس غاية في حد ذاته، بل هو وسيلة للبحث عن روح الشعب وتطويرها كوسيلة لتطوير الواقع ذاته وكل مشاكل، تجديد التراث دراسة للبعد الاجتماعي.» ( حسن حنفي، 1992، ص.23 )  
ومن هذا المنطلق ، فأن المفكرين والفلاسفة والفقهاء والعلماء والسياسيين اهتموا بالتراث اهتماما كبيرا، وكل واحد منهم اختار لنفسه مقاربة، وفهما، ومذهبا، ومنهجية، ومقاصد، أرادها من هذا التراث ومن إحياءه أو من طمسه.

## سعيد محمد

لقد اتسمت طبيعة المقاربات والاهتمامات بالتراث بعدد من المواصفات، والتي ترجم حقيقة المقاصد المعرفية، والفكرية، والإيديولوجية لتلك النخب العربية في تعاملها مع التراث، والتي لم تخرج عن الدوائر السلوكية التالية:

الدائرة السلوكية التي يعرفها بعض النقاد بدائرة النفاق الفكري في مقارنته للتراث، والتي تتجلى في أعمال وخطابات عدد من الفقهاء، والعلماء، والفلاسفة، والنقاد، ورجال الحكم، والسلطان، والذين يناضلون دوماً وأبداً من أجل إحياء التراث وتفعيله في الزمن الحاضر وان كانوا حقيقة لا يؤمنون به « ولا يبغون إلا المحافظة على مصالحهم الخاصة... فان التأكيد على الماضي كقيمة مطلقة فيه تثبيت لمناصبهم، وتأكيد لسلطانهم مستترين وراء العلم والدعوة إلى نصرته القديم ضد البدع المستجدة، فهو موقف يقوم على النفاق. » (حسن حنفي، 1992، ص. 28)

وفي نفس المعنى، ظهر اتجاه ثان يعرفه النقاد بأهل دائرة العجز في مقارنته للتراث، ويتجلى عبر عدد من الأعمال والخطابات الانتاجات العلمية لعدد كبير من العلماء، والفقهاء، والفلاسفة، ورجال السلطة والسلطان، الذين راهنوا على العيش على التراث، ومن التراث، وبالتراث، وفق فكر عاجز على البحث والمساءلة والنقد وأعمال الفكر والتحليل، بل لم يقفوا عند حدود العجز غير المعلن، بل رفعوا راية المنع والتحریم المقاربة النقدية للتراث، والعمل على إبقاءه مقدساً جامداً ممنوع المس أو المساس به، كما أنهم أعلنوها صراحة بأن الفكر المعاصر غير قادر على الإتيان بفكر وبعلم في مستوى ما أنتجه القدماء، لقد أسسوا منظومة فكرية تحنيطية عاجزة على المساءلة، وعلى القراءة النقدية للتراث، كما دافعوا على إبقاء التراث في الصورة وفي الصيغة التي وصل بها إلينا من الأسلاف. وقد عملوا على نوع من الإسقاط التعسفي للفكر العاجز عن الواقع، حيث ناضلوا بعدم التغيير الفكري، والاجتماعي، والعقائدي، والثقافي، والسياسي، معتبرين ذلك مسا بالتراث وبالهُوية وبالذاكرة.

وفي المعنى نفسه، يتجلى اتجاه ثالث لا يقل تعاسة وخطورة عن الاتجاهين السابقين في ما ألقاه من مواصفات سيئة، وسلبية، وخطيرة، ومضرة للتراث، وللفكر العربي المعاصر : نفاق وعجز. لقد ظهر هذا الاتجاه الثالث والذي يمثله عدد من الفقهاء، والحكماء، والفلاسفة، والنقاد، ورجال السلطة والسلطان، الذين تميزوا بأنانية متوحشة، ونرجسية كبيرة، في التعامل والتفاعل مع التراث وبالتراث وفي التراث، حيث تم امتلاك هذا التراث امتلاكاً يكاد يكون شخصياً، وكل واحد أو جماعة تدعي الملكية والقدرة على فهمه والتعامل معه وحده دون غيره، « فهو موقف نرجسي لا يرى فيه الإنسان أبعد من مصالحه الخاصة، يعيش

## التراث - مفهوم واستراتيجيات معرفية وايدولوجية

ويدور في فلك أهوائه ،ولا ينكشف إلا بتأثر من خلاله...وهذه الترحسية ناشئة في الحقيقة إما عن نفاق ،وتستر ، ومساومة ، وممالة ، كما هو الحال في الأول، أو عن عجز ، وضعف ، وخنوع ، واستكانة ، كما هو الحال في الثاني.» ( حسن حنفي، 1992، ص.ص. 28-29)

### 4. الاتجاهات الفكرية والتراث العربي الإسلامي:

ويمكن تصنيف طبيعة المقاربات والاهتمامات الفكرية إلى ثلاثة تصنيفات كبرى، وقد يضم كل تصنيف، تصنيفات فرعية صغرى، تتغذى منهجيا، ومعرفيا، وايدولوجيا، من التصنيفات الكبرى:

**الاتجاه المحافظ أو الاتجاه التقليدي أو الاتجاه السلفي أو الاتجاه التراثي:** وهو اتجاه معرني، وفلسفي، وفقهي، وايدولوجي، قام أصلا على أساس أن حال هذه الأمة لا يصلح إلا بما صلح أولها. فهو يدعو إلى إحياء التراث، والحفاظ عليه، وصيانتته، دون المس به ،أو تغييره، أو تجديده فلا بد وأن يبقى ويحافظ عليه في حالته الخام، كما تركه السلف الصالح ،وحتى وان كتبت دراسته أو مقارنته، فلا بد وان تكون طبيعة هذه المقاربة والدراسة مستمدة أصلا لمناهجها ولوسائلها الدراسية من عمق التراث، دون إخضاعه إلى مقاربات ومناهج وتقنيات جديدة ومعاصرة وحدائية أو حديثة، والتي يعتقدون أنها لا تتماشى وطبيعة التراث، وهويته المعرفية ،بل قد تشوّهه وتدمره وتفقد الهوية المعرفية، والانتماء المعرني، والحضاري ،والفكري ،والتاريخي ،وحتى الإيدولوجي. لقد سعى دعاة هذا الاتجاه إلى إحياء التراث، والدفاع عنه، التمسك بك وفق أطر مقدسة ثابتة بثبوت وثبات الهوية ،والأصالة ،والانتماء.

وقد تتجلى دعوة إحياء التراث، وحمايته، والتمسك به ،عبر عدد من الخطابات ،والصريحات السياسية في الزمن العربي التعس الجريح ،حيث صنع منه وعاء، وسلاحا، ووقاية ،وحماية ،وتخفيفا ،ومصدر أمن واطمئنان، من ثقل الهموم ،والمشاكل السياسية ،والاجتماعية، والثقافية ،والايدولوجية للمجتمع العربي في ظل الحروب العدوانية والاعتداءات الصهيونية والاستعمارية الغربية على الأوطان العربية. لقد كان التراث والعودة إليه ،والاحتماء به ،مادة خام ،وفعالة للشعوب العربية ولنخبها ،التي لجأت إلى التراث لتقوية وتغذية وعيها ،ولشحن الطاقات الشعوب العربية، من اجل الوحدة والثورة حيث « انه في ظروف المجاهدة مع الاستعمار والصهيونية، والتمزق الطائفي والتشتت القومي، والجهل والظلم نتوجه إلى التراث لنستلهم منه، قبل كل شيء، الأفكار والمذاهب، والأحداث والمواقف التي تشحذ الهمم ،وتعبي الصفوف مما يخدم التصدي للعدوان والاحتلال، وتعزيز الوحدة الوطنية والقومية، وإشاعة التسامح الديني والطوائفي ،ومحاربة

## سعيد محمد

الخرافات والظلاميات، وإعلاء شأن العقل والعلم، والانتصار للذين استضعفوا في الأرض.» ( توفيق سلوم، 1988، ص.ص.95-96)

**الاتجاه الجديد أو الاتجاه التجديدي أو الاتجاه الحداثي أو الاتجاه المعاصر والاتجاه الغربي: وهو** اتجاه معرني، وفلسفي، وفقهي، وإيديولوجي، قام أصلا من أجل مقارنة التراث وفق رؤية نقدية ودراسته بدون قيد أو شرط، والعمل على إزالة بل وتحرير التراث عن الطابع التقديسي، وتحريره من قبضة الرؤية الفكرية المتزمتة المغلقة. كما سعى هذا الاتجاه إلى إخضاع التراث إلى قراءات حديثة تماشيا ومتطلبات الزمن الحاضر، ومتطلبات المرحلة المعرفية، والفكرية، والإيديولوجية الجديدة، بكل تحدياتها ومراهنتها. كما عمل دعاة هذا الاتجاه إلى إخضاع التراث إلى عملية انتقائية، حيث عملوا جاهدين من أجل اخذ واختيار من التراث الأجزاء، أو القضايا، أو الأفكار، والأطروحات، التي قد تفيد واقع الأمة ومتطلبات زمنها الحاضر وتحضيرا للزمن المستقبل. ومن هذا المنطلق، كان شعارهم ليس كل التراث مهم ومفيد، وأن عددا من قيمه وما يحتويه من قضايا وأفكار، لم تعد صالحة في الزمن الحاضر، وإن كانت في وقت من الزمن الماضي وزمن الأسلاف، لها قيمتها، ولها دورها في البناء الاجتماعي، والاقتصادي، والسياسي، والعقائدي، فهي لم تعد تملك ذلك الدور وتلك القيمة، وبالتالي، فإن التمسك بها تمسكا فتيشيا صنميا، هو العودة بالزمن الحاضر إلى الزمن الماضي، وسجنه والى الأبد بعيدا عن الركب الحضاري الجديد، ومتطلبات زمن التنمية، وشروطها الفكرية، والمعرفية، والإيديولوجية.

لم يتنكر هذا الاتجاه للتراث، ولم يتمسك به تمسكا تقديسيا مطلقا، بل سعى إلى التعامل معه وفق اطر نقدية تتماشى والمرحلة الجديدة.

وقد تميز هذا الاتجاه باختلافات معرفية، ومنهجية، وإيديولوجية في مقارنته للتراث، تحكمت فيها الخلفيات والمرجعيات التي انطلق منها المفكرون، وهي خلفيات ومرجعيات مختلفة باختلاف المدارس الفكرية، والمعرفية، والمنهجية، والإيديولوجية، طبعها مدرستان اثنتان:

المدرسة الغربية الحرة الليبرالية.

المدرسة الغربية الاشتراكية، والشيوعية، والماركسية.

إن الحديث عن الاتجاه الاشتراكي والشيوعي والماركسي في الفكر العربي المعاصر وتعامله مع التراث، يذكرنا بموقف تلك النخبة العربية التي كانت تدعي الإصلاح والثورة على الماضي، وعاداته، وتقاليدته، ومنظومته الفكرية، والإيديولوجية، وخاصة، ما تعلق منها بالجانب الديني، والعقائدي المتأثرة بالفكر الشيوعي،

## التراث - مفهوم واستراتيجيات معرفية وإيديولوجية

والماركسي الروسي، والمعروف بتلك المواقف الموروثة عن المرحلة اللينينية (نسبة إلى الزعيم الروسي لينين) وموقفه من التراث الروسي، حيث يعتبره مؤرخو الفكر والتراث أنه أول من « دعا إلى التعاطي مع التراث بمنهج البضع والبتير من خلال مناقشته في مطلع القرن مع الشعبويين الروس... والحال أن الماركسيين العرب الذين طالما رماهم خصومهم بالعدمية التراثية، ردوا هم أيضا بإحياء الموقف اللينيني من التراث، وبالتأكيد على أن التراث حقل للصراع، كذلك كان وهكذا ينبغي أن يؤخذ، ومن هنا حتمية التشطير، وحتمية توظيف جزء من التراث في مواجهة جزئه الأخر، وفي مواجهة الكلية مع الخصم الإيديولوجي. » (جورج طرابيشي، 2012، ص.ص. 13-14)

غير أن هذا الاتجاه، وهذا الموقف، فهو اتجاه، وموقف سياسي أيديولوجي، يفتقد إلى الروح العلمية، وإلى الموقف العلمي الموضوعي في تعامله مع التراث، كمادة علمية، وفق أسس، ومبادئ علمية نزيهة وشريفة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن مصدره غير علمي، وخاصة، وأن مصدره الزعيم السياسي لينين، "لم يكن باحثا، بل مناضلا وقائدا نضاليا، ولم يكن يهمنه من التراث حقيقته التاريخية، بل قابليته لتوظيف في الصراع الإيديولوجي التي هي بالضرورة قابلة جزئية." (جورج طرابيشي، 2012، ص. 14)

الاتجاه التوفيقى أو البين البين أو اتجاه الأصالة والمعاصرة: وهو اتجاه فكري، وفلسفي، وإيديولوجي، عمل أصحابه على المزاجية بين القديم والجديد، وبين الأصالة والمعاصرة، وبين التقليد والحداثة، أي لم يتنكروا أصلا للتراث، ولم ينقطعوا عن متطلبات الحداثة. فلقد سعوا إلى الأخذ بالتراث وفق بعض الأصول والأسس الحداثية. فهم لم ينغلقوا في الزمن الماضي، ولم ينقطعوا عن الزمن الحاضر. ولعل ما يميز هذا الاتجاه، أن أصحابه كان لهم الفضل الكبير في إعادة بعث وبحث في التراث بعيدا عن أي فكر تصارعي أو تصادمي كما عرفته الاتجاهات الأخرى، سواء المتكثرة للتراث، أو المتمسكة به، لقد اتجه هذا الاتجاه في مادة إحياء التراث وتجديده، والتعريف به، بطريقة هادئة سليمة وسلمية، كما عملوا على بناء معرفة حداثية مستمدة بعض قيمها وأفكارها وأطروحاتها من التراث، فهي في نفس الوقت نظرة حداثية للتراث، ونظرة تراثية للحداثة.

ويمكن ضمن هذا الاتجاه الحديث عن تلك النظرة القائلة بأنه قد يحتوي التراث قيما لا بد من تفعيلها وإحيائها، وعصرنتها، والعمل بها، وصناعة لها مكانا ومكانة ضمن السياق المعرفي، والثقافي، والعقائدي، والاجتماعي، والسياسي، والاقتصادي، العربي في الزمن الحاضر، أي نأخذ من التراث ما قد يفيدنا

## سعيد محمد

ويتماشى والزمن الحاضر، وبالتالي، التعامل مع التراث وفق النظرية الانتقائية كما ذهب إلى ذلك الأستاذ زكي نجيب محمود، حين يقول: «فماذا عسانا أن نأخذ من تراث الأقدمين؟ الجواب هو: نأخذ من تراث الأقدمين ما نستطيع تطبيقه اليوم تطبيقاً عملياً، فيضاف إلى الطرائق الجديدة المستحدثة. فكل طريقة للعمل اصطنعها الأقدمون وجاءت طريقة أنجح منها، كان لا بد من اطراح الطريقة القديمة ووضعها على رف الماضي الذي لا يعنى به إلا المؤرخون. بعبارة أخرى: إن الثقافة-ثقافة الأقدمين أو المعاصرين-هي طرائق عيش، فإذا كان عند أسلافنا طريقة تفيدنا في معاشنا الراهن، أخذناها وكان ذلك هو الجانب الذي نحياه من التراث، وأما ما لا ينفع نفعاً عملياً تطبيقياً، فهو الذي نتركه غير آسفين. وكذلك نقف الوقفة نفسها بالنسبة إلى ثقافة معاصرنا من أبناء أوروبا وأمريكا.» (زكي نجيب محمود، 1974، ص.18)

**الاتجاه المتنكر الراض للتراث:** وهو اتجاه فكري، وفلسفي، وإيديولوجي، وقف أصحابه وقفة ثورية، وشرسة، رافضة أصلاً للتراث جملة وتفصيلاً، بل تم اتهامه بالتخلف والتحجر، كما ادعوا أنه من أسباب التخلف الحضاري والفكري للأمة وللشعب، واعتبروه من الحواجز التي منعت الأمة من الانطلاق نحو مستقبل زاهر. إن موقفهم هذا ليس بريئاً، وليس مجاناً، أو اعتباطياً، لقد جاء محملاً بأفكار جهنمية، وعنصرية تخنيطية احتكارية مضادة للتاريخ الفكري والعقائدي للأمة ولانتماءاتها الدينية والحضارية، حين وسعوا التراث العربي الإسلامي بالتخلف، والغيبية الساذجة، والخرافية، والسحرية، فاقدة الوعي والمنطق العلمي والتفكير السليم الذي لا يتماشى ومجتمع المعرفة والتكنولوجيا والتقدم والتنمية. لقد وقفوا بالإنسان العربي المسلم عند حدود الفكر الغيبي واصفين إياه بتمسكه المطلق والعضوي «بعالم الغيبيات والمنزلات والسماويات، أو ما يعرف بالعقل الغيبي (مع ملاحظة الاشتقاق اللغوي المفضي إلى الغباء) بكل ما يحمله من سلب، وهروب، وانغلاق، وتعصب، استطرادا طبعاً إلى حد المقولة المعروفة عن كيف أن الغيبية تفضي إلى الفاشية. أو هي تنتهي-عادة- في أحضان وخدمة مصالح احتكارية واستعمارية، كما هو الحادث مع الأنظمة الدينية، وهو ما نشهده اليوم في واقع ومستقبل-قريب- بلداننا العربية... ليت أخطار العقل الغيبي تقف عند المصادمات الدينية العنصرية، بل هي أصبحت معوقاً جذرياً محققاً للتنمية-التي هي قوام العالم الثالث-من مادية وبشرية-على المستوى الرأسي النوعي- وعقلية، أقرب إلى متطلبات العصر التقني الذي نعيشه، بل هي أصبحت تشكل أنماطاً سلوكية-معيشية أو يومية-معوقة بالطبع لاحتياجات وحتميات المجتمعات المحهدة والفقيرة أو النامية.» (شوقي عبد الحكيم، 1979، ص.6)

## التراث - مفهوم واستراتيجيات معرفية وايدولوجية

لقد تعالت أصوات كثيرة من مثقفين ومفكرين في العالم العربي منافية ومعادية للتراث العربي الإسلامي، ومنتكرة لكل الجهود العلمية العربية الإسلامية، وما أفرزته من إبداعات في شتى فروع المعرفة من رياضيات، وكيمياء، وفيزياء، ومنطق، وطب، وهندسة، وفلك، ونقد، وتاريخ، وجغرافيا، وصيدلة، وحضارة، واقتصاد، وفلسفة، وعقيدة الخ... شكلت هذه المعارف العربية الإسلامية تراثا علميا سليما وأصيلا، ومصدرا مهما ومفيدا للعديد من الحضارات على مر التاريخ. كما تنكر هؤلاء المفكرون والمثقفون العرب للتراث العربي الإسلامي، ولم يكتثوا به على الرغم مما يحمل بين طياته من علوم ومعارف شهد على مستواها العلمي والفكري علماء ومفكرون من معالم فكرية وحضارية وعقائدية غير عربية وغير إسلامية، حيث اتجهوا إليه لينهلوا منه جاعلين منه مصدرهم ومرجعهم العلمي بامتياز. لقد درسوه، وترجموه، ونقلوا منه ما شاءوا لذلك سبيلا. لقد وقف المفكرون والمثقفون العرب المعادون للتراث العربي الإسلامي عند حدود تلك النظرة السطحية الساذجة التي ظلوا متمسكين بها دوما وأبدا، والتي تمثل موقفهم من العقيدة والدين الإسلامي. حين اعتبروا أن هذا الدين يمنع من التفكير الحر، ومن الحرية، ومن التقدم، ومن العلم. وهي أفكار خاطئة بالأساس، فالفكر العربي الإسلامي هو فكر علمي حر ونزيه، أسس حضارة لازالت حية مستمرة، ولازالت مصدر حضارات أخرى، وان كانت هذه الحضارة العربية الإسلامية عرفت إهمالا ونكرانا في عقر دارها وفي مخيال أبناءها الذين عجزوا على مواصلة وعلى الاستمرارية في تلك الدروب المعرفية التي رسمها الأسلاف والقدماء من علماء وفقهاء الحضارة العربية الإسلامية من أمثال الجاحظ، وابن المقفع، وأبو حامد الغزالي، والسيوطي، وابن جني، والخليل بن أحمد، وابن رشد، والفارابي، وابن سينا، وابن مسكويه، وأبو حيان التوحيدي، وابن حزم، وابن خلدون وغيرهم كثيرون والذين لازالت المكتبات العالمية حية تزخر بكتبهم.

لقد وقف هؤلاء المثقفون والمفكرون الراضون للتراث مواقف عدائية للذين يعملون جاهدين من اجل الإشادة بالتراث العربي الإسلامي واصفين إياهم أوصافا غير علمية وغير أخلاقية، حيث يقول في هذا الصدد الأستاذ شوقي عبد الحكيم « إن الذين يهونون أو هم يتعامون عن مدى الأخطار التي يقودنا ويعرضنا لها التراث ما قبل العلم هذا، وهو التراث الذي لم تنكسر شوكته، بل لم يصبه ويعتريه التغير والتفهم الواقعي - كبناء من المتناقضات - بالقدر الذي يسمح بكل أحجته وطلاسمه، وبالقدر - حتى - المتوائم أو المتقارب مع تغيير علاقات الإنتاج الذي اعتري عالمنا، ولعل أبسطها التحول البترولي الرأسمالي

## سعيد محمد

الذي لا يستقيم أبدا مع محاولات طبع الماضي على الحاضر، خلال مجرى عمليات الخداع للحفاظ على ما يسمونه -على أحسن الفروض- دعاة الجبرية التاريخية والتراثية، بروح التاريخ، والذي ليس في حقيقته سوى روح هؤلاء السادة أنفسهم. « (شوقي عبد الحكيم، 1979، ص.42)

### 4. نقد الاتجاهات:

لم تسلم هذه الاتجاهات من النقد والانتقاد، سواء من حيث الطرح المعرفي والفكري والعلمي، أو من حيث الطرح المنهجي التقني، أو من حيث الطرح الإيديولوجي. لقد شكلت عملية نقد الاتجاهات مادة خصبة للتفاعل بين المفكرين، سواء تفاعل علمي، أو تفاعل غير علمي، سياسي، إيديولوجي بامتياز. لقد تصدى المفكرون إلى بعضهم البعض في كثير من الأحيان وفق خطابات عنيفة وصلت إلى درجة العداء والثورة والكرامية والانتقاد بعيد عن أي فكر علمي وربما أيضا بعيدا عن أي فكر أخلاقي أدبي. فهي مواقف سياسوية إيديولوجية متسترة وراء خطابات شبه علمية مزيفة ومزورة، فاقدة الروح العلمية، والأخلاقية والمسؤولية العلمية، وهو الأمر الذي خلق منه المفكرون العرب أعداء وخصوم لبعضهم البعض، وشن حروب ومعارك كلامية ضد بعضهم البعض عبر عدد من الصحف، والمجلات، والكتابات، بعيدة عن الروح العلمية. وقد تميزت هذه المعارك وهذه الخصومات بالسب، والشتم، والاهانة، والاحتقار، والاتهامات الخطيرة التي جردت بعضهم البعض من الانتماء إلى شعب، وإلى وطن، وإلى هوية، وإلى تاريخ، وإلى ثقافة، وإلى عقيدة.

### 1.4. نقد الاتجاه التراثي:

« فالذين يدعون فقط بالعودة إلى التراث أو ما يسمى الأصالة، وإلى النموذج الماضي، وعلى افتراض وجود نموذج ماض واحد محدد، وأن ندير الظهر ل"المعاصرة" لا يفرقون كثيرا بين "الشكل" أو "المنهج" وبين "المضمون" أو "الموضوع"، وأن "مواضيع اليوم" هي ليست كلها أو معظمها "مواضيع الأمس"، كما أن هناك من المواضيع المستجدة في حياتنا المعاصرة مما قد لا تتوفر "الأشكال" المناسبة أو اللازمة لمعالجتها في "المنهج الماضي"، وبالتالي، فالنموذج الماضي، بشكله ومضمونه، ما عاد يستجيب ككل ولوحده لمتطلبات الحياة العربية المعاصرة، ناهيك عن المستقبل. « (خير الدين حسيب، 1985، ص.21-22).

ومن هذا المنطلق، فإن هذا النقد يقوم أساسا على خصوصيات الواقع العربي في الزمن الحاضر، الذي قد يعيش وفق مظاهر ثقافية، واجتماعية، وسياسية، وفكرية، واقتصادية، جديدة معاصرة أو حديثة وحدائية، وما قد تحدته من سلوكات ومواقف، وما قد تتطلبه من تخمينات، ومن أفكار خاصة، قد لا نجد لها حلولا

## التراث - مفهوم واستراتيجيات معرفية وإيدولوجية

أو ما قد يعادلهما أو يشبهها في التراث، وعند السلف الذين عاشوا في زمنهم نفس أنماط الحياة التي نعيشها في الزمن الحاضر. ربما قد تتشابه في بعض الأحيان بعض الممارسات، وبعض المواقف، وبعض القضايا والمظاهر، ولكن ليست بنفس الوتيرة، وبنفس المنطق، ووفق نفس السلوك الثقافي، فكل زمن منطق والذي هو منطقته الخاص يختلف عن منطق الزمن الأخر. الحدائثي:

« وكذلك حال الذين يدعون إلى "التحديث" أو ما يسمى "المعاصرة" وإلى النموذج المعاصر، أي الغربي لوحده، وأن نقطع مع الماضي والحاضر بكل أوزاره، فإنهم يغفلون أن هذا المجتمع الغربي المعاصر، هو حصيلة تطور، وتفاعل فكري، واجتماعي، واقتصادي، وسياسي، خاضه الغرب على مدى قرون، وانتهى إلى ما هو عليه، وأتينا لا نستطيع أن ندخل على الخط الغربي في نقطة معينة معاصرة بتاريخ وبارث ثقافي، واجتماعي، واقتصادي، وسياسي، مختلفين، وتتممض هذا النموذج المعاصر، ناهيك عما إذا كان كل ما في النموذج المعاصر مرغوبا فيه ومطلوبا، وعما إذا كان من الممكن عمليا الوصول إليه في مستقبل قريب منظور حتى إذا أسقطنا كل التحفظات.» (خير الدين حسيب، 1985، ص.22)

إن التطبيق التعسفي والقيصري للنموذج الغربي على تراثنا وثقافتنا ومجتمعنا قد تكون له نتائج سلبية وعكسية خطيرة على المسيرة الفكرية، والثقافية، والاجتماعية، والعقائدية، والسياسية للذات العربية وللهوية العربية. فكل مجتمع، وكل فكر، وكل ثقافة، وكل تراث، قد لا يكون مهيبا لتبني نماذج فكرية ولدت أصلا لشعب ولثقافة أخرى ولادة طبيعية بالنسبة لهذه الثقافة التي احتضنته وشهدت على ولادته ووفرت له الظروف المادية والفكرية الخاصة، والتي تتماشى وخصوصياته، وقد لا تكون لها نفس الفاعلية، ونفس الآثار إذا ما تم نقلها من فضاءها وتطبيقها في فضاء آخر، فقد تفقد هويتها وفاعليتها، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، قد تحدث نتائج سلبية وسيئة في هذه الثقافة، وهذا المجتمع، وهذا الفكر الذي قد يستوردها ويتبناها تبنيا اصطناعيا وقصريا. وفي هذا الصدد قد يصبح المجتمع، والفكر، والثقافة، والتراث، الذي يتنكر لماضيه ولأصالته والارتقاء في أحضان الأخر، شأنه شأن المثل الشعبي والحكمة الشعبية القائلة: أردا الغراب أن يقلد مشية الحمامة، وإذا به يفترق مشيته الأصلية، ويعجز أن يقلد الحمامة. وكانت الخسارة خسارتين: العجز على الحفاظ على مشيته، وعلى أصالته وهويته، والعجز على تقليد ونجاح في تقليد مشية الحمامة، والفوز بالنموذج المتطور الجاهز.

## 2.4. نقد الاتجاه بين-بين أو الاتجاه التوفيقى:

منذ البداية، نشير إلى أن هذه التسمية أثارت تساؤلات مفاهيمية جمة، وفي كثير من الأحيان صعبة وغامضة من حث الطرح المعربي، والمنهجي، والموضوعاتي، والإيديولوجي، ولعل أهم هذه التساؤلات والتي قد تبدوا بسيطة ولكنها تخفي أفكار من صعوبة بما كان فك رموزها دلائليتها اللغوية، والمعرفية، والرمزية، والوظيفية مثل:

ما المقصود جمع بين الأصالة والمعاصرة؟ وكيف يتم ذلك؟ وعلى أي مستوى من الفكر ومن الممارسة؟ كيف يمكن الجمع بين الجديد والقديم؟ وبين التجديد والتقليد؟، وبين العربي والغربي؟، وبين الشرقي والغربي؟ وبين النموذج التراثي والنموذج الحداثي؟

تساؤلات لا تنتهي. «فالدعوة إلى الجمع بين الأصالة والمعاصرة، ورغم ما تلقاها من استجابات عقلية ووجدانية في أوساط كثيرين منا، فلا تزال، في تقديري ضبابية يكتنفها الكثير من العموميات وأحيانا التناقض. فهل يقصد الجمع بين النموذج الماضي العربي، والنموذج العصري الغربي معا في المجتمع العربي؟ وكيف يمكن ذلك مع كل التناقضات بين النموذجين الماضي والمعاصر في مشروع نهضتنا القومية المعاصرة؟ وهو منهج مختلف يفرض علينا كثيرا من التحديات وأعمال للعقل تجعلنا أمام متطلبات إيجاد الحلول والوسائل. ومن خلال دراسة واقعا وتحديد تطلعاتنا مستعنيين بعقل علمي عربي يستفيد دون عقد، أو وصاية، أو مراهقة، أو إرهاب فكري، أو خوف سلطوي من النموذج الماضي العربي، والنموذج المعاصر ليس الغربي فقط، بل من الفكر العالمي المعاصر كله غريبا أو غيره حسب طبيعة المشكلة أو الموضوع في مشروعنا النهضوي القومي.» (خير الدين حسيب، 1958، ص.22)

إن عملية تحقيق هذه الازدواجية عملية صعبة وشاقة ومعقدة، ولكنها غير مستحيلة في عالم الأفكار التي ولدت أصلا من أجل التفاعل، والأخذ والعطاء، مهما كان المصدر، شريطة أن يتبناها فكر علمي أصيل وقائم على أسس ومبادئ معرفية ومنهجية سليمة، تعرف الحوار المعربي، والتفاعل المعربي، دون عنف أو تسلط، أو نرجسية فكرية. ومن ثمة، فإن أصالة المنظومات الفكرية الإنسانية، ولدت من أجل التفاعل المفيد والمثمر والبنوي القائم على الحوار، والاحترام، والتقاسم، والتشارك، والمثاقفة، والأخذ والعطاء، وفق أسس علمية سليمة بعيدة عن الأطروحات السياسية الضيقة، والجدال الفكري الإيديولوجي ألتصاعبي الاقصائي، ومن هذا المنطلق « فالحق أن ثقافتنا الراهنة محكومة بهذا "الأخر" له بقدر ما هي محكومة وتابعة لثقافتنا القديمة، أعني تراثنا العربي الإسلامي. ونحن نعتقد أن التحرر من التبعية للأخر لا يمكن أن

## التراث - مفهوم واستراتيجيات معرفية وإيديولوجية

تتم إلا من خلال العمل من اجل التحرر من التبعية للماضي ،ماضينا نحن. وبعبارة أخرى، إن التحرر من الانبهار بالاستلاب لثقافة الغرب لا يمكن أن يتم إلا عبر-ومع- التحرر من هيمنة "التراث". والتحرر من التراث لا يعني الهروب منه ولا الإلقاء به في سلة المهملات كما أن التحرر من ثقافة الغرب لا يعني الانغلاق دونها. إن التحرر من الغرب-ونحن نتحدث هنا في دائرة الثقافة والفكر-معناه التعامل معه نقديا، أي دخول مع ثقافته، التي تزداد عالمية، في حوار نقدي وذلك بقراءتها في تاريخيتها وفهم مقولاتها ومفاهيمها في نسبيتها، وأيضا التعرف على أسس تقدمها، والعمل على استنباطها في تربتنا الثقافية، وهي لصفة خاصة العقلانية والروح النقدية.» (محمد عابد الجابري،1958،ص.55)

إن الدعوة إلى إحياء جزء من التراث والتخلي أو إقصاء الجزء الأخر وفق النظرية الانتقائية أو التشطيرية الجزئية، شكلت بعض الأخطار على التراث نفسه الذي أصيب في كيانه المعرفي الكامل والشامل، حيث تمت تجزئته وتفضيل جزء منه وإقصاء أجزاء أخرى، وهي الحالة التي أثارها الأستاذ حسن مروة الذي رفض هذه النظرة الانتقائية التشطيرية الجزئية للتراث، والذي هو أصلا كلا متكاملا وشاملا لا بد من التعامل معه في كليته وفي شموليته تفاديا لبتره وقتله وتشويهه، حيث يقول في هذا الصدد: « من موقع النظر التاريخي نرفض أولا النظرة السكونية للتراث...ونرفض ثانيا نظرة المفاضلة المطلقة بين جزء من التراث وجزء آخر...نرفض هذه النظرة، لأنها لا تاريخية من حيث تلغي الخصوصيات التاريخية للخطاب التراثي ككل، وتجزئ التراث رغم وحدته التاريخية، أي وحدة سياقه الكلي التكاملي...إن هناك نوعا من المفاضلة يمكن قبوله حين يتعلق الأمر بالطابع الشخصي الإبداعي. لكن حين يتعلق الأمر بالسياق التاريخي العام، فإن الطابع التكاملي الشمولي يبقى هو طابع الخطاب التراثي الكلي الذي يرفض التجزئ، أي يرفض كل الطرائق الانتقائية.» ( جورج طرابيشي،2012،ص.57)

يؤكد الأستاذ حسن مروة أن التعامل مع التراث هو تعامل كلي وشامل بعيدا عن أي محاولة أو نية تجزئته أو بتر جزء منه وتوظيفه توظيفا استثنائيا أو مناسبتيا وفق أغراض محددة وضيقة.

وخلاصة القول، فإن التراث العربي الإسلامي مصاب في ذاته وفي كيانه وفي وجدانه، نتيجة هذه الصراعات المعرفية والسياسية والإيديولوجية. المتمسكون بالتراث لا يرون الحقيقة إلا فيه، وفي رؤيتهم، وفي مقاربتهم له، كقيمة معرفية، وثقافية، وفكرية، وحضارية، وعقائدية، وتاريخية، وسياسية، ضرورية من اجل انقاذ الأمة، وانقاذ الإنسان العربي، في ظل هموم الزمن الجديد، وفي ظل متطلبات النهضة والتنمية، والتي

## سعيد محمد

ولا بد وأن تكون وفق هوية الأمة، وهوية الإنسان، وهوية المجتمع العربي الإسلامي، على عكس الراضين للتراث الذين يرون أن التراث يشكل عائقا معرفيا، وفكريا، وثقافيا، واجتماعيا، ونفسيا، وسياسيا، واقتصاديا، يمنع الأمة، والإنسان، والمجتمع من الانطلاق، ومن التحرر، ومن مواكبة الزمن الجديد، وبالتالي لا بد من التخلي عنه، ومحاربة بقايا الرجعية، والتحنيطية التقليدية، إن هذا التراث لم يعد صالحا، ولم يعد مفيد، وأن التمسك به هو تمسك بالتخلف والضعف.

ومهما يكن من أمر هذه التيارات الفكرية والإيديولوجية المتصارعة حول التراث من حيث الاهتمام، والعناية، والدراسة، والإحياء، والبعث، والتجديد، والتوظيف، أو من حيث التنكر، والرفض، والإقصاء، والثورة المضادة، فإن التراث العربي الإسلامي يبقى قيمة ثابتة كبيرة، محليا، ووطنيا، وإقليميا، وعالميا، وإنسانيا، حاضرا كله أو جزء منه في الثقافات والحضارات الأخرى عبر المسيرات التاريخية لعدد من الأمم والشعوب. ومن ثم فإن الاهتمام بالتراث مسؤولية كبيرة يقع عاتقها على كل مثقف عربي، مهما كان لونه، واتجاهه، وطبيعة تكوينه المعرفي، والإيديولوجي، وبكل بساطة، فإن التراث « لا يشير إلى الماضي برمته، ولا يستبعد الحاضر برمته، لا يزيد كثيرا، أو يقل كثيرا عن جماع مقومات شخصية الأمة التي تحاول النهوض، ومن ثم فإن احترام الأمة لتراثها، هو احترامها لذاتها، والاستخفاف بالتراث، هو الاستخفاف بالنفس، والأمة التي لا تكف عن تصغير ذاتها في مقارنة مستمرة بالآخرين، شأنها في ذلك شأن الفرد، لا يمكن في أحسن الأحوال إلا أن تكون "مقلدا كفوًا" ولكنها تفقد قدرتها على الإبداع،» (جلال أحمد أمين، 1958، ص.767)

إن انتقادات الاتجاهات لبعضها البعض، تفتقد إلى الروح العلمية والأخلاقية، فهي انتقادات سياسية إيديولوجية تسيء إلى التراث نفسه، وإلى المفكرين والمثقفين أنفسهم، حين تسلط بعضهم على بعض بالشتم والسب والتكفير والإقصاء والخيانة. فهي مواقف سلوكية عدوانية، تتغذى من مصادر غير علمية وغير أخلاقية. فهي مواقف ناتجة عن «تجاهل المثقفين العرب أن الحقيقة نسبية، وادعاء كل مثقف أن التيار الذي ينتمي إليه ماركسيا كان أو إسلاميا أو قوميا، يمتلك الحقيقة بمفرده، إضافة إلى عدم الاطلاع الكافي على المصادر الفكرية الأساسية للتيارات المختلفة (يكشف عن هذا عدم اطلاع المثقف الماركسي على المصادر الأساسية للفكر الإسلامي، وعدم اطلاع المفكر الإسلامي على المصادر الأساسية في الفكر الماركسي) اكتفاء بأسلوب الرفض المبدئي والإدانة، ومن هنا غياب الحوار. وإن كانت هناك علامات

## التراث - مفهوم واستراتيجيات معرفية وإيديولوجية

مشجعة في السنوات الأخيرة حول بداية الحوار الحقيقي بين ممثلي التيارات الفكرية المختلفة.» (السيد يسين، 1958، ص. 809)

### 5. التراث والتراث الشعبي العربي الإسلامي :

لا يمكن أبداً أن ينسبنا الحديث عن التراث العربي الإسلامي موضوع التراث الشعبي، والذي هو أصلاً جزء لا يتجزأ من التراث العربي الإسلامي الشعبي، نسبة إلى الشعب العربي المسلم بالمقابل إلى النخبة العربية الإسلامية المثقفة أو العاملة. هذا التراث الذي ظل لأسباب ولظروف خاصة واستثنائية، وربما نقول أسباب مرضية فكرية، تم تهميشه وإقصائه من الدائرة المعرفية العربية التي سيطرت عليها النخبة العربية البورجوازية المنقطعة والمنسلخة عن شعوبها العربية، فكراً، وثقافة، وإيديولوجية. لقد تم تهميش التراث الشعبي واصفين إياه بالتخلف، والضعف، والخرافة، والعقلية الخمولية، والعاجزة، والكسولة، والأمية والجاهلة، والفوضوية، ناسين ومتناسين أن هذا التراث هو أصلاً من إنتاج الشعب العربي المسلم عبر مراحل التاريخ، والثقافية، والأدبية، واللغوية، والفكرية، والحضارية، ووفق فلسفته في الحياة، ووفق رؤيته للأشياء. لقد ظل التراث الشعبي العربي الإسلامي مهمشاً ومقصياً وغير مبال به، ولا بقيمته المعرفية، والثقافية، والتاريخية، والحضارية، والنفسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والعرفية القضائية، والإيديولوجية، فهو يشكل روح الشعب، كما أنه مرتبط ارتباطاً عضوياً بكيان الشعب ووجدانه. لقد وقف الفكر العربي عند دائرة التراث الفكري العالم، أي الذي أنتجه العلماء، والمفكرون، والفقهاء، والفلاسفة، وفق تلك الرؤية المدرسية الكلاسيكية، ووفق اللغة العربية الفصحى، ولم يهتموا بالتراث الشعبي لا لشيء إلا لأنه من إنتاج الطبقة الشعبية، وباللهجات المحلية، سواء أكانت عربية أم غير عربية، ولكن يبقى من إنتاج العقلية الشعبية العربية الإسلامية الممتدة في الفضاء الثقافي والاجتماعي، والحضاري العربي، من المشرق إلى أقصى المغرب، والممتد في الزمان العربي من العصر الجاهلي إلى يومنا هذا. إن الشعوب العربية الإسلامية تنتج تراثها باستمرار لتعبر عن أمالها، وآلامها، وأحاسيسها، وشعورها، وحزنها، وفرحها. فالتراث الشعبي العربي الإسلامي هو صورة تعكس هموم الشعوب العربية الإسلامية بلغة بسيطة بساطة حياة الشعوب العربية الإسلامية التي لم تستطع الحديث والتحدث بلغة النخبة العربية البعيدة عن شعوبها أو تفكر تفكير هذه النخبة. لقد عبر المخيال الشعبي العربي الإسلامي بلغته، وبأسلوبه، وعبر عدد من المظاهر والأشكال التعبيرية عن نفسه وعن ذاته ووجدانه، فأبدع الحكايات، والشعر، والأساطير، والملاحم، والألغاز،

## سعيدي محمد

والنكت، والأمثال، والأغاني، والرقص، والرسم، والنحت، والعادات، والتقاليد، والمعتقدات، والطقوس، والرموز، الممارسات الاجتماعية، والثقافية، والاقتصادية، والنفسية المرتبطة ارتباطا عضويا بحياته وأنشطته المادية والمعنوية والسلوكية، كما أنها تعبير صادق عن تفكيره وعقليته.

وفي هذا الصدد، نشير إلى أن النخبة العربية الإسلامية وقفت مواقف عدائية للتراث العربي الإسلامي الشعبي، واعتبرته خطرا على اللغة، والفكر، والثقافة، والعقيدة، والهوية، والوحدة القومية، متهمه إياه بأنه مصدر التفرقة، ومصدر التخلف، وفي أحيانا كثيرة وصفته بالخروج عن العقيدة. غير أن هذه المواقف العدائية لم تكن سليمة في طرحها، وفي تعاملها مع هذا التراث تعاملنا منطقيًا وعلميًا، بل كان كله إجحاف فاقد للمعنى، وفاقد للوعي الشعبي الأصلي والأصيل، كما أنها بمواقفها هذه، أنكرت وتنكرت لقدرة الشعب العربي على الإبداع، وعلى التفكير، وعلى الثقافة .

فإذا كانت النخب المثقفة الغربية اهتمت بتراث شعوبها، وأولته درجة كبيرة من الاحترام، والتقدير، والجمع، والتدوين، والتنقيب، والدراسة، والتحليل، وإخراجه ف كتب ومصنفات كبيرة وكثيرة لازالت مكتباتها العامة والخاصة، تزخر بها، ولازالت الدراسات الأدبية، والنقدية، واللغوية، والأنثروبولوجية، والإثنولوجية، والاجتماعية، والنفسية، والتاريخية، والحضارية، والعقائدية، تعود إليها من اجل كتابه واستنطاق تاريخ شعوبها، وثقافتها، وحضارتها، فان النخب العربية الإسلامية تنكرت لتراث شعوبها وتمردت عليه، وتمت إقصاءه من الاهتمام العلمي العربي الإسلامي. وبهذا، وسواء أكانت على دراية أم لم تكن بذلك، فلقد تنكرت لجزء كبير من الفكر، والثقافة العربية الإسلامية، التي ولدت أصلا في هذه الأرض العربية الإسلامية، وفي أحضان المنظومة الفكرية، والثقافية، والنفسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، والحضارية، والتاريخية الشعبية العربية الإسلامية. إن التراث العربي الإسلامي هو تراث عام وشامل، يشمل الإنسان العربي المسلم، مثقفا، وشعبيا، دون تمييز وتفرقة، أو إقصاء فالثقافة العربية الإسلامية تشمل كل ما أنتجه ومارسه واستهلكه ويستهلكه الإنسان العربي المسلم على ارض العربة والإسلام.

إن الاهتمام بالتراث العربي الإسلامي الشعبي أصبح ضرورة ملحة في خضم التهافت الفكري، والثقافي، والإيديولوجي، والعقائدي، والهوياتي، الذي تعيشه الشعوب العربية الإسلامية تحت ضغط العولمة الكاسحة للثقافات وللهويات، وتحت ضغط همجية الاستعمار، وتحت ضغط الصهيونية التي تسعى إلى تجريد الشعوب العربية الإسلامية من أراضيها، من تراثها، ومن ثقافتها، ومن هويتها، ومن ذاكرتها، ومن تاريخها الفكري، والحضاري، والثقافي، وتحت ضغط الأنظمة العربية الإسلامية الدكتاتورية المانعة إي تفكير

## التراث - مفهوم واستراتيجيات معرفية وإيديولوجية

حر، وأية ممارسة ثقافية تعددية ديمقراطية. إن التراث الشعبي هو القوة الضاربة في جذور الأمة، به تحتمي وتحمي ذاتها وتصونها من أي اعتداء، أو اندثار، أو ذوبان، فالتراث الشعبي هو الهوية، والثقافة، والتاريخ، والذاكرة، والإبداع الذي يبقى دوماً وأبداً عنوان الشعوب وعنوان انتماءاتها.

لقد أصبحت قضية التراث الشعبي العربي الإسلامي من القضايا الجوهرية في المخيال المعربي، الواعي والمسؤول، والمنخرط في عملية البناء الفكري، والثقافي، والاجتماعي، والنفسي، والحضاري، والعقائدي العربي الإسلامي الجديد والحديث والذي يسعى إلى تموقع الإنسان العربي بين الأصالة والمعاصرة، وبين التجديد والتقليد، وبين الماضي والحاضر والمستقبل. إن قضية التراث «بما تحمله من مشكلات تكتسب أهميتها القصوى من كونها تعبر عن حركة مزدوجة في المجتمع العربي المعاصر: حركة فكرية نشطة تدور بين المثقفين والكتاب على اتساع الوطن العربي. ويحتدم فيها الجدل، ويثور الخلاف إلى حد العنف اللفظي الشديد أحياناً. وتدور حول قضية العودة إلى الجذور، وإعادة تعريف الهوية، على اختلاف واسع في المنهج والاتجاه، وحركة جماهيرية تتسم بالديناميكية، والاتساع، والشمول، تتسم بالميل إلى العودة للتراث، وهذه العودة تتخذ أشكالاً ثقافية وسياسية شتى.» (السيد يسين، 1958، ص.11)

لقد اهتمت الشعوب بتراثها الشعبي أيما اهتمام، وعملت على تدريسه لأبنائها في المدارس والجامعات، كما عمل مثقفوها على توظيفه في كتاباتهم وفي أعمالهم الأدبية الشعرية والروائية والمسرحية والقصصية الفنية، والموسيقية، والسينمائية، وذلك من أجل الضمان لهذه الأعمال الانتماء إلى شعب، وإلى أمة، وإلى وطن، وإلى تاريخ، وإلى حضارة، وإلى هوية. فلقد تغنوا بتراثهم، ورفعوا لواءه في المناسبات وفي المحافل الوطنية والدولية دون قيد أو شرط، ودون الإحساس بأية عقدة فكرية ومعرفية و نفسية وحضارية. كما نظموا له مهرجانات ومعارض، وأسسوا له متاحف... غير أن الأمر عند المثقفين العرب اتجه اتجاهها مخالفاً ومختلفاً، فلم يقفوا الموقف نفسه مع تراثهم الذي اعتبروه وسمة عار، وتحلف، واهانة، وتحقير. وهذا ما أدى بضياع جزء كبير منه في غياب الاهتمام، والعناية، وتدوين، والجمع، والطبع، والتعريف به للأجيال، وربما ترجمته للسفر به عبر الثقافات المختلفة كقيمة فكرية، وثقافية، ومعرفية، وتاريخية، وحضارية شعبية أصلية وأصيلية. إن العناية بالتراث الشعبي عبر المحطات المعرفية والعلمية العالمية، أكسبه معان وأسماء مختلفة في دنيا البحث والدراسة، فهو التراث الشعبي، والتراث الشفهي أو الشفوي، والتراث العامي، والتراث التقليدي،

## سعيد محمد

والتراث المحلي، والمأثورات الشعبية، والثقافة الشعبية، والفلكلور (من فولك: الشعب، ولور: الحكمة أي حكمة الشعب).

ومهما يكن من أمر، فإن مسألة التراث الشعبي العربي الإسلامي في غياب الرؤية العلمية السليمة، وفي غياب فكر ديموقراطي سليم وأصيل في مجال المعرفة والثقافة، وفي غياب الأطر العلمية القادرة على التكفل به تكفلا علميا سليما مثل الانثروبولوجيا، والاثنولوجيا، ونظريات الثقافة، والدراسات المقارنة، ونظريات المعرفة، يبقى يعيش محملا بجروح الرفض والتمرد، والفعل ورد الفعل، والثورة، والثورة المضادة والمعاكسة من أجل الاعتراف والاحترام، ومن أجل اكتساب مكانة ومكانا معرفيا ضمن المنظومات المعرفية العربية الإسلامية سليمة سالمة متساملة متعايشة مع نفسها ومع الآخر المتعالي الترجسي والذي لا يرى الفكر، والعلم، والمعرفة، والثقافة، والتاريخ، والحضارة، إلا في ما يمتلكه العلماء، والمفكرون، والفقهاء، وما عداهم لا معنى لهم، ولا قيمة لهم، وليس له الحق في أن يكونوا، وفي أن يدخلوا ضمن الدائرة المعرفية الرسمية. ومن هذا المنطلق « يجب أن نقف لحظة عند هذه الظاهرة لنصحح مفهوم التراث لما يستعمله الفكر النضالي الإيديولوجي المعاصر، لا ينحصر التراث في الثقافة العاملة التي أنشأها العلماء في المدن باللغة العربية الفصحى مع الاعتماد على مبادئ الإسلام أو التراث العلمي المنتشر قبل الإسلام في الأمصار القديمة كالرها، ودمشق، وإسكندرية، وحند شابور وقرطاج... فقد واصلت الثقافات الشعبية نشاطها ونفوذها، بل نافست وعارضت الثقافة الرسمية الناتجة عن خواص المدن. واستمر الصراع في جميع المجتمعات بين المكتوب والشفهي "الجاهلي" والإسلامي العام الخاص والشعبي العامي، وهناك ترابط وتعامل جدليان بين ازدهار أو تقلص الثقافة الرسمية المكتوبة وازدهار أو انبعاث الثقافات الشعبية الشفهية، كما تتعلق تلك الجدلية بازدهار الحكومة المركزي واو ضعفها.» (محمد أركون، 1958، ص.ص. 121-122)

### 6. التراث والهوية :

يتقاطع التراث مع عنصر الهوية تقاطعا عضويا متينا، بحيث يكمل أحدهما الآخر، ويتغذى من بعضهما البعض، وقد لا يكون الواحد دون حضور الآخر، وقد يتقوى الواحد بقوة الآخر، ويضعف الواحد بضعف الآخر، وعلى هذا الأساس، ظل الباحثون يتعاملون مع التراث، والهوية، بجذر وبقطة كبيرتين من حيث التفاعل النزيه والشريف بعيدا عن كل تأويل سيء وخاطيء، قد يشوه المسيرة التاريخية، والعلمية للتراث نفسه وللهوية. فالتراث والهوية يكادان يتجليان كوجهين لعملة واحدة، أو قد يشكلان الوجهين للورقة واحدة، وتمزيق جهة من الورقة قد يحدث تمزيق في الجهة الأخرى، «فتمة ترابطا وثيقا بين التراث

## التراث - مفهوم واستراتيجيات معرفية وإيديولوجية

والهوية، فلا هوية بدون تراث تستند إليه، ولا تراث إذا لم يؤسس للهوية: فالتراث والهوية عنصران متلازمان من عناصر الذات، ومكونان متكاملان من مكونات الشخصية الفردية والجماعية.» (حسن حنفي، 1992، ص.20)

إن الحديث عن التراث والهوية، هو أصلاً حديث عن التاريخ الثقافي، والحضاري، والعلمي، والسياسي، والاجتماعي، والاقتصادي للشعوب، وهذا من جهة، ومن جهة أخرى، لقد ارتبط هذا التراث بالذاكرة الشعبية عبر مسيرتها التاريخية، فالتراث المادي واللامادي هو الوعاء الثقافي، والأدبي، والسياسي، والاقتصادي، والاجتماعي، والعمراني، والحضاري للشعوب، وبالتالي، لا يمكن أبداً الحديث عن التاريخ، وعن الحضارة، وعن الذاكرة، وعن الانتماء، في غياب التراث، والذي يعد المادة الخام، والمكون الأساسي للهوية، وللتاريخ، وللذاكرة، وللحضارة. إن الشعوب تعرف أكثر فأكثر بتراثها والذي هو المعادل الدلالي والوظيفي والرمزي للهوية، وللشخصية، وللانتماء المادي والمعنوي والرمزي. إن التراث بكل أشكاله ومظاهره المادية واللامادية، وأمنائه، وتجلياته المتعددة والمتنوعة، يطرح نفسه كقيمة ثابتة في حياة، وفي تاريخ الشعوب، وبالتالي فإن حمايته، وصيانتته، والمحافظة عليه، والدفاع عنه، هو واجب ومسؤولية أخلاقية، وثقافية، وسياسية، ممتدة في الزمن وفي المكان، ومستمرة عبر الأجيال، ورصيدها الذي لا ينضب، وجذور وجودها. إن التراث مهما كان شكله، ومهما كان مضمونه ومهما كان مصدره، ومهما كان مبدعه، ومهما كان شعبه مستهلكاً أو مبدعاً، فهو رصيد إنساني متراكم. يعد ثروة الأمة ورصيدها الذي لا ينضب. فالتراث وعاء معرفي، وحضاري، ينهل منه ويبنى عليه، ولذلك كان التفريط في التراث انسلاخاً من الهوية، وتنكراً للأصول، وكان تواصل الأجيال من خلال التراث بجميع أشكاله ضرورة من ضرورات المحافظة على التراث وحماية الخصوصيات الثقافية والحضارية. (حسن حنفي، 1992، ص.31)

### 6. الخاتمة:

لقد شغلت مسألة التراث بال المفكرين، والباحثين، ورجال السياسة، والمنظمات المحلية، والوطنية، الإقليمية والدولية، متخذة أشكالاً ومظاهر مختلفة، وذلك لا لشيء إلا بسبب تلك المكانة التي يحتلها هذا التراث في المخيال الفكري، والثقافي، والعلمي، والحضاري، والتاريخي، والسياسي، والعمراني، والاقتصادي، والنفسي للشعوب، فالتراث هو جزء لا يتجزأ من كيان هذه الشعوب، وهويتها، وخصوصيتها المادية والمعنوية.

## سعيد محمد

إن مسألة التراث ليست مسألة ظرفية وعابرة ومناسباتية، فهي مسألة ثابتة ومرتبطة ارتباطا عضويا وروحيا بالتاريخ الفكري، والحضاري، والثقافي للشعوب.

ومن هذا المنطلق، تحتل مسألة التراث الصدارة في سجل اهتمامات وانشغالات الدول، والحكومات، والهيئات، وخاصة في خضم التهافت الفكري، والإيديولوجي، والسياسي، الذي يعيشه العالم اليوم في ظل حروب، وتطاحن الهويات (أمين مالوف)، والبحث عن الذات، والبحث عن الزمن الحضاري السليم والأصيل، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، في خضم الزحف الكبير والخطير الذي صاحب العولمة الثقافية، والفكرية، والحضارية، التي تسعى إلى إزالة وذوبان والقضاء على كل أنواع وأمط التراث الشعوب. والإشادة بتراث واحد موحد وهو التراث المهيمن اقتصاديا، وسياسيا، وعسكريا، والمتمثل بدون منازع في ذلك التراث المفبرك، والمصطنع، والفاقد للتاريخ، وللأصالة، وهو التراث الأمريكي الذي ما فتئت أمريكا وحلفاؤها الترويج له عبر وسائلها الإعلامية المتطورة تكنولوجيا وتقنيا.

وقد اعتبر المثقفون، والمفكرون، والفلاسفة، ورجال السياسة، والاقتصاد، والتربية والتعليم، والثقافة، والفن، والعمران أن مسألة التراث هي قضية جوهرية في حياة الشعوب ماضيا وحاضرا ومستقبلا بل تم اعتبارها قضية القضايا الحساسة، والتي لا بد من التعامل معها بحذر، ويقظة، ووعي، ومسؤولية، لحمايتها، وصيانتها، والحفاظ عليها، والخوف عليها، من أي اعتداء أو تحريف، أو تشويه، أو تأويل قد يسئ إلى الشعب، وإلى تاريخه، وإلى هويته، وإلى أصالته، وإلى انتماءه، وإلى قيمه، وإلى أخلاقه. فالتراث وعاء حامل لمعاني وقيم وأفكار ومبادئ وثقافة الشعب، والتي قد تساهم بقوة كبيرة في البناء الاجتماعي، والثقافي، والسياسي، والعقائدي، والفكري، والاقتصادي، والتربوي الأصيل، والعريق، وفق طرق ومناهج علمية سليمة، تحمي الشعب والمجتمع من أي انحراف وضياع وغربة.

## 6. قائمة المصادر والمراجع:

القران الكريم.

- أبو زيد احمد، 2004، هوية الثقافة العربية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر.

## التراث - مفهوم واستراتيجيات معرفية وايدولوجية

- التراث وتحديات العصر في الوطن العربي-الأصالة والمعاصرة- 1985، بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت-لبنان، مجموعة من الباحثين: السيد يسين، محمد عابد الجابري، محمد أركون، الطيب تيزيني...
- التويجيري عبد العزيز بن عثمان، 2004، في البناء الحضاري للعالم الإسلامي، الجزء السابع، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، الرباط، المغرب.
- حنفي حسن، 1992، التراث والتجديد-موقفنا من التراث القديم، الطبعة الرابعة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان.
- سلوم توفيق، 1988، نحو الفكر الجديد-رؤية مركزية للتراث، بيروت، لبنان.
- طراييشي جورج، 2012، مذبح التراث في الثقافة العربية المعاصرة، دار الساقى، الطبعة الثالثة، بيروت، لبنان.
- عبد الحكيم شوقي، 1979، علمنة الدولة وعقلنة التراث العربي، دار العودة، بيروت، لبنان.
- محمود زكي نجيب، 1974، تجديد الفكر العربي، دار الشروق، الطبعة الثالثة، بيروت، لبنان.
- مصطفى أحمد فاروق، 2008، الأنثروبولوجيا ودراسة التراث الشعبي-دراسة ميدانية، دار المعرفة الجامعية، القاهرة.
- التراث > [:https://ar.wikipedia.org/wiki](https://ar.wikipedia.org/wiki).
- تاريخ زيارة الموقع الالكتروني يوم 09-10-2021 على الساعة 13س.و52د.